الكفارات رحمة من رب الأرض والسماوات

د/ سعيد عامر(*)

الكفارات:

جمع كفارة، وهي ما كُفر به من صدقة وصوم، ونحوهما، وسميت الكفارة بهذا الاسم لأنها تَكْفُر الذنب وتستره(١).

قال الإمام النووي -رضي الله عنه-: الكفارة من الكَفر -بفتح الكاف- وهو الستر؛ لأنها تستر الذنب وتذهبه، هذا أصلها، ثم استعملت فيما وجد فيه صورة مخالفة أو انتهاك، وإن لم يكن فيه إثم كالقتل خطأ وغيره(٢).

والكفارة: هي الأفعال التي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، طريقًا لتكفير ذنوب ومخالفات شرعية، ومن ذلك:

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٨٩)

وروى الإمام البخاري من حديث عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تَسْأَل الإِمَارَةَ ... وإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وكَفِّر عَنْ يَمِينِكَ»(٣).

يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله: إن الإنسان -بما رُكب فيه من قوتي الشهوة والغضب- عرضة للوقوع في الذنوب والسيئات بمخالفة أوامر الخير والطاعات، ولا يسلم من ذلك إلا بعصمة من الله تَحُولُ بينه وبين شهوته وغضبه، ومن رحمة الله بالمؤمن أن شرع له وسائل كثيرة إذا فعلها وقام بها على وجهها طهرت نفسه من أدران

(*) الأمين العام المساعد للدعوة والإعلام الديني بمجمع البحوث الإسلامية.

(١) راجع التعريفات الفقهية، محمد البركيتي. دار الكتب العلمية، بيروت ط: ٢٠٠٣م، صـ ١٧٨.

(٢) المجموع. دار عالم الكتب، ط:٢٠٠٣م، تحقيق محمد نجيب المطيعي (٢٣٦/٦).

(٣) فتح الباري: ٦١٦/١١، دار الريان للتراث، ط:١٩٨٧م.

المعصية السابقة، وقويت على طرد بواعث المعصية اللاحقة، وبذلك يحصل على علاج ما وقع، وعلى الوقاية مما يتوقع، ولو تنبه المؤمن إلى تلك الوسائل العلاجية الوقائية، وامتثل إرشادها، لأقبل على الله طاهرًا وراضيًا مرضيًّا، ولأقبل الله عليه عفوًا كريمًا غفورًا رحيمًا، وهذه الوسائل التي شرعت علاجًا للذنوب ووقاية منها هي المعروفة في لسان الشرع باسم «الكفارة»(٤).

والكفارات تؤدي إلى حسن العلاقة بين المسلم وربه، فلا ييأس حال ارتكاب الذنوب والعصيان، ولهذا قضت الحكمة الإلهية أن يكون لذنب المؤمن كفارة تغطيه وتستره، وتمحو آثاره، ويعالج أخطاءه، فيعود المسلم إلى ربه بعد أداء الكفارة صافيًا مطمئن القلب، مستريح البال.

فالله عز وجل كلف عباده تكليف ابتلاء واختبار، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وركب الله عز وجل في الإنسان من الغرائز والحاجات ما يتم به الابتلاء والاختبار، وبعث الله الأنبياء والمرسلين، وأنزل لهم الكتب تبين لهم منهاج عملهم، وكتب عليهم الحسنات والسئات، وأحصى أعمالهم ليجازيهم عليها، فعاملهم إذا أثابوا بفضله وكرمه وإحسانه فضاعف لهم الحسنات، ورفع لهم الدرجات، وعاملهم إذا أساءوا بعدله، قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٠)

وروى الإمام البخاري ومسلم من حديث سيدنا عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَيِّئَاتِ، ثُمَّ بيَّن ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإِنْ هُو هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(٥).

ثم إن الله تعالى من فضله ورحمته بعباده أن جعل لهم مع ذلك كفارات لِلَّمَمِ والذنوب والخطايا والآثام إن هم ألموا بمعصية ففعلوها؛ فالمسلم لا يبتلى بشيء من الذنوب والمعاصي إلا جعل الله له منه فرجًا ومخرجًا، بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات حتى يعود المسلم إلى ربه طائعًا مختارًا، فرحًا مسرورًا.

والكفارات فيها معنى العقوبة لكونها شرعت أجزية لأفعال فيها معنى الحظر، ككفارة الفطر في رمضان، وفيها معنى العبادة؛ لكونها تتأدى بالصوم والصدقة، وهي قرب، ككفارة الظهار، يقول الخطيب الشربيني: وهل الكفارات بسبب

(٤) الفتاوى. الإمام الأكبر محمود شلتوت: ٢١٧، دار العالم العربي، ط:٢٠١٨م.
(٥) فتح الباري: ٣٣١/١١، رقم [٦٤٩١].

حـرام زواجر كالحـدود والتعازيـر، أو جوابر للخلـل الواقع، وجهـان، أوجههمـا الثاني كما رجحه ابن عبد السـلام؛ لأنها عبادات، ولهذا لا تصح إلا بالنية[٦].

الكفارات عامة وخاصة:

هذا، وإن الكفارات تنقسـم إلى قسـمين، كفارات عامة، وكفارات خاصة.

أولًا: الكفارات العامة أو مكفرات الذنوب:

والكفارات العامة تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسـم الأول: الطاعـات التـي يؤديهـا المسلم، فتكفر الذنوب والخطايا، ومنها:

-صيـام التطـوع، ففي الحديـث المتفق عليه من حديث أبي سـعيد الخدري -رضي اللـه عنـه- قال: قال رسـول اللـه ﷺ: «مَنْ صَـامَ يَومًا فِي سَـبِيلِ اللـهِ، بَاعَدَ اللـهُ بِذَلِكَ اليَـومِ النَّارَ مِـنْ وَجْهِـهِ سَـبْعِينَ خَرِيفًا»[٧] وصدقة التطوع، وإغاثة الملهوف، والسـعي علـى الأرملة، وكفالة اليتيـم، وقضاء حوائج الناس، والسعي في الصلح بينهما... إلخ.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقـرة: ٢٧١) ونجد هـذا النوع كثيـرًا في القـرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة.

وروى الإمام مسـلم وأبـو داود والترمذي والنسـائي وابن ماجه عن أبي قتادة -رضي الله عنه- قال: قال رسـول الله ﷺ: «صِيَامُ عَرَفَةَ، إِنِّي أَحْتَسِـبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التـِي قَبْلَه، والسَّـنَةَ التي بَعْدهُ، وَصَـوْمُ يَوْمِ عَاشُـوَرَاءَ، إِنِّي أَحْتَسِـبُ عَلَى اللـهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قَبْلَهُ»[٨].

-فعـل الفرائض كالصلـوات المكتوبات، وصلاة الجمعة: روى الإمام مسلم من حديث أبـي هريـرة -رضـي اللـه عنه- أن رسـول الله ﷺ قـال: «الصَّلَوَاتُ الخَمْـسُ والجُمعَةُ إِلَـى الجُمعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُـنَّ مَا لَم تُغْشَ الكَبَائِـر»[٩] والحـج المبـرور، والصيـام، والصدقة، والوضوء، إلخ.

القسم الثاني: الترك.

التـروك التي في اجتناب نوع منها تكفير لنـوع آخـر، ككبائـر الذنـوب والموبقـات، فـإذا اجتنبـت الكبائر تعبـدًا وامتثـالًا لأمر الله، كفـر اللـه باجتنابها صغائـر الذنوب، قـال تعالـى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النسـاء: ٣١)، وقـال عـز وجـل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ (النجـم: ٣٢).

---

(٦) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، ط: ٢٠٠٠م، (٥/٤٠).

(٧) البخاري برقم(٢٨٤٠) ومسلم برقم (١١٥٣).

(٨) أخرجه الإمام مسلم برقم: (١١٦٢/١٩٦). وأبو داود برقم: (٢٤٢٥)، والترمذي برقم: (٧٦٧) والنسائي برقم: (٢٣٨٣) وابن ماجه برقم: (١٧٣٠/١٧١٣).

(٩) مسلم برقم (٢٠٩).

وقال تبارك اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٧)

واجتناب المسلم للكبائر والموبقات فضلًا عن تكفيره الصغائر، فالمسلم مثاب بتجنبه، روى البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْخُذ مِنِّي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَل بِهِنَّ أَوْ يُعَلمُهُنَّ مَنْ يَعْمَل بِهِنَّ؟» قال: قلت: أَنَا يا رسول الله ﷺ قال: فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا، ثُمَّ قَال: «اتَّقِ المَحَارِمِ تَكُنْ أَعْبدَ النَّاس، وارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاس، وأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤمِنًا، وَأَحِبَّ للنَاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، ولَا تُكْثِر الضَّحِك، فإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ»(١٠).

القسم الثالث: الصبر على المصائب والمُلِمّات:

فالصبر على المكروه الذي يصيب المسلم في بدنه أو ماله أو ولده يكفر الذنوب والخطايا، روى الإمام مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا المُسْلِمُ إِلَّا كفر بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوكَة يُشَاكهَا»(١١).

وفي رواية: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى، شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ وَحَطَّ عَنْهُ ذُنُوبَهُ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَة وَرَقَهَا».

وفي الحديث المتفق عليه، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما- أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، ولَا حُزْنٍ، حَتَّى الهَمَّ يهمُّه، إِلَّا كفرَ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»(١٢).

والوصب كالمرض، وقيل: هو المرض اللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (الصافات: ٩) أي لازم ثابت.

والنصب: التعب، والسقم، بفتح السين والقاف، وبضم السين وإسكان القاف، لغتان، وهو طول المرض، والحزن: بفتح الحاء والزاي، قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٣٤) وبضم الحاء وسكون الزاي، قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤).

والغم: كربٌ يحدث للقلب بسبب ما حصل، والهمُّ: ما ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به.

روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال:

(١٠) البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٥٢) والترمذي (٣٣٠٥) وابن ماجه (٤٢١٧).
(١١) الإمام مسلم برقم (٥٣١٧).
(١٢) الإمام البخاري برقم (٥٣١٨) والإمام مسلم برقم (١٩٩٢).

«يقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيهِ، فَصَبَرَ واحْتَسَبَ، لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الجَنَّةِ»[١٣].

القسم الرابع: التوبة النصوح.

هذا القسم، من رحمة الله عز وجل أنه لا يترك به ذنبًا إلا غفره، حتى أعظم الذنوب وهو الكفر، فإن التائب منه يكفر عنه ما قد سلف، قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣٨)، وكذلك من أذنب في الإسلام ذنبًا وإن عظم، فإنه يكفر بالتوبة.

قال تعالى:

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)

والتوبة هي العود والرجوع عن المعصية، والندم والإقلاع عنها، والعزم على عدم العودة إليها إذا قدر.

والصلة بين الكفارة والتوبة أن كلًّا منهما بمشيئة الله تعالى سبب لمغفرة الذنب، والكفارة مشروعة باتفاق الفقهاء، وهي واجبة جبرًا لبعض الذنوب والمخالفات الشرعية، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

❊❊❊

(١٣) الإمام الترمذي برقم (٢٤٠١) وقال: حسن صحيح.